سلسلة الرسائل (٢١)

مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٤هـ

الصبر على البلايا

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ
مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

أخواتي في الله إن التواصي بخُلُقِ الصبر من أجل العبادات والطاعات، وفيه سلامة من الخسارات والحسرات، كما قال ربنا في كتابه الكريم: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ [العصر]. وقال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد:١٧-١٨].

وإن الصبر منزلته رفيعة، ولا يتصف به إلا من ألهمه الله سُبحَانَهُ ووفقه، وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالصبر في أدلة كثيرة، قال سُبحَانَهُ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۝١٢٧ ﴾ [النحل:١٢٧]. وقال تَعَالَى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ ﴾ [الطور:٤٨].

وقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم:٤٨]. وقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ﴿٢٤﴾ ﴾[الإنسان:٢٤]. وقال سُبحَانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[آل عمران:٢٠٠]. في آيات كثيرة.

كما حث ربنا عَزَّوَجَلَّ على هذا الخُلُقِ العظيم خلق الصبر ورغَّبَ فيه؛ تحفيزًا للنفوس على الصبر، يقول سُبحَانَهُ في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[يوسف:٩٠]. فمن اتقى وصبر كان من المحسنين، ولن يضيع الله أجر المحسنين، قال تَعَالَى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود:١١٥]. من أعظم صفات المحسنين الصبر.

وقال سُبحَانَهُ في كتابه الكريم: ﴿ ۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة:١٧٧] إلى أن قال سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[البقرة].

﴿ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ ﴾ الفقر، الفقر يحتاج إلى صبر؛ لأنه يجلب الآلام، يحتاج إلى الطعام فلا يجد فيتألم، يحتاج طعامًا تشتهيه نفسه فلا يستطيع تناوله فيتألم، يجد أولادَهُ بحاجة إلى الغذاء وإلى الملابس فلا يستطيع أن يعطيَهُم فيتألم، يجد نقص المعيشة والأمور الدنيوية ولا

يجد مطلوبه فيتألم...؛ لهذا الله عَزَّوَجَلَّ يثني على من يصبر على الفقر، ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ ﴾، الفقر يحتاج إلى صبر، الفقر مِحْنة، لا يصبر عليه إلا من صبره الله تَعَالَى؛ ولهذا من أدعية النّبِيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ»(١).

الفقر يشمل: الفقر المعنوي-وهو فقر القلب من الغذاء الروحي الإيماني، والعقيدة الصحيحة، ومحبة الخير-، ويشمل الفقر الحسي، فالاستعاذة بالله من الفقر يشمل النوعين، وكم من إنسان يكون ثريًّا، لكن ليس في قلبه إيمان ولا خوف من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يحب الخير، هذا فقير القلب، وفقر القلب أشد من فقر المال.

﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ المرض بكل أنواعه: الخفيف، والقوي، كالحرارة، والزكام، ووجع السن، وكبر سن، ألم المفاصل، مرض السكر، الضغط...

﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وهو الجهاد.

هذه الأمور الثلاثة: الفقر، والمرض، والجهاد تحتاج إلى صبر، ومن أشد أنواعها الجهاد؛ لأنه إذا تقدم للقتال قد يُجرحُ، قد يُقْتل، قد يقع بيد عدوه فيصير مأسورًا، فيخاف على نفسه.

---

(١)رواه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مسنده»(٣٤/٩٧)عن مُسْلِمِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ مَرَّ بِوَالِدِهِ وَهُوَ يَدْعُو، وَيَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: فَأَخَذْتُهُنَّ عَنْهُ، وَكُنْتُ أَدْعُو بِهِنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ، قَالَ: فَمَرَّ بِي وَأَنَا أَدْعُو بِهِنَّ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَنَّى عَقَلْتَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟، قَالَ: يَا أَبَتَاهُ، سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِهِنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ فَأَخَذْتُهُنَّ عَنْكَ، قَالَ: فَالْزَمْهُنَّ يَا بُنَيَّ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو بِهِنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ فأهل البر وأهل الصدق وأهل التقوى هم الصابرون، فمن صبر على الخير كان من الصادقين، ومن صبر كان من المتقين، ومن أهل البِرِّ والإحسان؛ لأن في أول الآية ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ إلى آخره، فهذا ترغيب في خُلُقِ الصبر.

والقليل من يصبر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[الحج:١١].

والصبر له حرارة في القلب ومرارة، لكن عاقبته حميدة، قال الشاعر:

الصبرُ مثل اسمه مر مذاقته ❁❁❁ لكن عواقبه أحلى من العسل

ولهذا ربنا عَزَّوَجَلَّ وعد أهل الصبر بالجنة، فقال سُبحَانَهُ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾[الإنسان:١٢]. وقال تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون:١١١].

فالتي تريد الفوز بالآخرة والفوز بالجنة فتحرص على هذه الخُلُقِ النَّبيلِ، وتستعين بالله عَزَّوَجَلَّ في التحلِّي بخُلُقِ الصبر ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾، وذكر سُبحَانَهُ عن الملائكة أنها تطلع على أهل الجنة وتقول: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾[الرعد:٢٤].

نِعْمَ الدارُ دار الجنة دار القرار، ونعمَتِ العاقبة الحميدة لأهل الصبر، فالصبر عبادة جليلة طريق إلى الجنة، فلا نغفل عن خُلُقِ الصبر، ونحن في دار ابتلاء ودار محن.

الصبر أنواعه ثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معاصي الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

لكن حديثي هذه الليلة إن شاء الله عن جزء من أنواعه، وهو: الصبر على الابتلاء والأحزان والمشاق، وهذا شيء لا بد منه، لا بد أن يمر على الجميع آلام الدنيا ومتاعبها، فليس هناك من يسلَمُ من متاعب الدنيا حتى لو كانوا أثرياء وملوكًا، قال تَعَالَى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران:١٨٦]. وقال الشاعر:

ثمانية لابد منها على الفتى ❁❁❁ ولابد أن تجري عليه الثمانية
سرور وهمٌّ واجتماع وفرقة ❁❁❁ ويُسْر وعسر ثم سقم وعافية

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ الابتلاء: الاختبار، الابتلاء في النفس، والمال، و الأهل، والولد.

هذه الدنيا مليئة بالابتلاءات، فلا يمكن أن يعيش فيها أحدٌ من دون ابتلاء؛ لأن الله تَعَالَى أوجدنا للامتحان فيها، لا لأجل أن نستقر فيها ونتخذها وطنًا، وإنما هي مزرعة للآخرة، الدنيا عبارة عن جسر نعبر عليه إلى دار الآخرة، الآفة أنها اتُّخِذَتْ وطنًا، فشغلت

عن الآخرة، واستُحْسِنَتْ ملذَّاتُهَا وشهواتُها، وصارت الابتلاءات تُقابَلُ بالجزع والسَّخَطِ إلا من رحم الله.

وربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبتلي عباده لا ليعذبهم ويهلكهم، ولكن رحمة بهم، وهذا للمؤمن، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المعاد»(٤/١٧٩): فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ، وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ كَمَا قِيلَ:

قَدْ يُنْعِمُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ❁❁❁ وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

فَلَوْلَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُدَاوِي عِبَادَهُ بِأَدْوِيَةِ الْمِحَنِ، وَالِابْتِلَاءِ لَطَغَوْا، وَبَغَوْا وَعَتَوْا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا سَقَاهُ دَوَاءً مِنَ الِابْتِلَاءِ، وَالِامْتِحَانِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ يَسْتَفْرِغُ بِهِ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمُهْلِكَةِ، حَتَّى إِذَا هَذَّبَهُ وَنَقَّاهُ وَصَفَّاهُ أَهَّلَهُ لِأَشْرَفِ مَرَاتِبِ الدُّنْيَا، وَهِيَ عُبُودِيَّتُهُ وَأَرْفَعِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ رُؤْيَتُهُ وَقُرْبُهُ. اهـ.

فالله سُبحَانَهُ إذا ابتلى عبده المؤمن هذه رحمة به، قد يكون عند الانسان كِبْرٌ وتباهي وتفاخر، قد يكون مذنبًا، قد يكون مؤذيًا للخلق، فإذا نزل به البلاء استكان وتواضع، وتفقَّدَ نفسه، ويقول: هذا بسبب ذنوبي، هذا بسبب أني أوذي جيراني، وأوذي إخواني، فيتوب إلى الله سُبحَانَهُ؛ لأن الله تَعَالَى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

فالابتلاء رحمة من الله، (فَسُبْحَانَ مَنْ يَرْحَمُ بِبَلَائِهِ، وَيَبْتَلِي بِنَعْمَائِهِ)، فسبحان ربنا أحكم الحاكمين!

كما أن الله قد يبتلي بعض القوم بالنِّعَمِ، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [٣٥: الأنبياء].

يرزقهم العافية والصحة والقوة ابتلاءً، المال، الوقت، الأولاد، فالابتلاء قد يكون بالنعم وبالنقم، بالسراء والضراء.

والابتلاءات تتفاوت فبعضها أشد من بعض، وتحتاج هذه الابتلاءات إلى إيمان وصبر، وقد تأتي ابتلاءات مفاجِئة ليست في الحُسبان: أمراض، وحوادث، وموت، وشدائد ليست في الحسبان، وهذا موقف المؤمن منها الصبر والاحتساب.

وأعظم الصبر: الصبر عند بغتة المصيبة، أي: عند أول هجوم المصيبة، كما في «الصحيحين»[٢] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى».

«عند» ظرف زمان بمعنى: وقت، والأصل في «عند» أنها ظرف مكان.

الله أعلم كيف يكون الموقف عند فجأة المصيبة!

تأتيه وهو غافل عنها لا يتوقَّعُهَا، يكون في شأنه أو سفره أو عمله، وتأتيه الفجيعة في نفسِه أو أهله أو ماله أو إخوانه، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(٢) البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).

أخواتي في الله، هناك أشياء تعين على الصبر عند الابتلاءات والمفاجآت المُرَّةِ، من ذلك:

ترويض النفس على الصبر، فالنفس تحتاج إلى ترويض، تحتاج إلى تعويد على الصبر، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المعاد» (٤/٢٢٦) في ترويض النفس: وَمِنْ أَعْظَمِ رِيَاضَتِهَا: الصَّبْرُ وَالْحُبُّ، وَالشَّجَاعَةُ وَالْإِحْسَانُ، فَلَا تَزَالُ تَرْتَاضُ بِذَلِكَ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى تَصِيرَ لَهَا هَذِهِ الصِّفَاتُ هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً.

سبحان الله! إذا رُوِّضَتِ النفسُ على الصبر تتعود الصبر، ويصير سجيةً وخُلُقًا لها، ويدل لهذا قول نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣)عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ.

«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ» الجزاء من جنس العمل، فالذي يحاول أن يصبِّر نفسه على قضاء الله وقدرِهِ الله عَزَّوَجَلَّ يمده بالصبر.

«وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» أفضل عطاء-يعطيك الله عَزَّوَجَلَّ- خُلُقُ الصبر، وهذا يفيد: أن الحياة السعيدة والحياة الطيبة لا تكون بالصبر.

وكما قال بعض السلف: وجدنا خير عيشِنا بالصبر.

فإذًا تروَّضُ النفس على الصبر، وقد علمتِ كلام ابن القيم: (وَمِنْ أَعْظَمِ رِيَاضَتِهَا: الصَّبْرُ وَالْحُبُّ، وَالشَّجَاعَةُ وَالْإِحْسَانُ)، حثٌّ على ترويض النفس على هذه الخصال: الصبر والحب والشجاعة والإحسان، والإحسان فضله عظيم، لكن طبيعة النفس الشح

وعدم بذلِ الخير، فتروَّضْ على بذل الخير، حتى تصيرَ أنها ما ترتاح إلا إذا أعانت، إلا إذا قدَّمَتْ خدمة، وهذا من أعظم أنواع الجود، الجود بالنفس، قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها ❁❁❁ والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ومن الأسباب التي تعين على الصبر: الإيمان بالقدر، والإيمان بالقدر شأنه عظيم في تخفيف الهموم والأحزان، وفي الصبر والرضا بما كتب الله، قال الله تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ ﴾ [التغابن:١١]. ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ أي: يستسلم لقضاء الله. ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ بشارة عظيمة لمن يستسلم لقضاء الله عَزَّوَجَلَّ أن الله يهدي قلبه، وإذا وضعت الهداية في القلب حصل الفوز بكل خير، نسأل الله أن يرزقنا الإيمان بالقدر خيره وشره.

ونبينا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» رواه أحمد (٤٥/ ٤٨٢)عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، وهو في «الصحيح المسند» (١٠٤٦) لوالدي رَحِمَهُٱللَّهُ.

فلكل شيء حقيقة، وما حقيقة الإيمان بالقدر؟ «أن يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ».

وفي «الصحيحين»[٣] عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ، يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا

(٣) البخاري (٧٣٧٧)، ومسلم (٩٢٣).

فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَعَادَتِ الرَّسُولَ أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إِلَيْهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنٍّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».

«تَقَعْقَعُ» أي: تضطرب؛ لأن الروح عند خروجها تضطرب وترتفع قليلًا حتى يتم خروجها، وكما قال الله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة:٨٣]. وقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة:٢٦-٢٧].

والنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما جاء إلى ابنته عزَّاها وسَلَّاها، وقال: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى».

«أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى» ما أخذ منا ربنا فهو له، وما أعطانا فهو كعارية عندنا؛ لأنه مِلْكٌ له، متى شاء ربنا أن ينزعه نزعه.

«وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى» صبر واحتساب وإيمان بالقدر، فهذا فيه تعزية وتسلية للمصاب، كما نستفيد: أنه ينبغي حضور بعض أهل الفضل عند المحتضَر؛ مؤانسة له وإعانة له على حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، ويصبِّره ويبشره بالخير، ومؤانسة وتثبيت لأهله.

«فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» أي: سالت عينا النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالدموع.

«فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟» أي: كيف تبكي وأنت رسول الله؟

الشاهد: الإيمان بالقدر، ومن لا يؤمن بالقدر أنَّى له الصبر؟!

مما يعين على الصبر: معرفة عواقب الصبر الحميدة ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: ١٠]. فالذي يعرف فضائل الصبر يكون عونًا له وتثبيتًا له.

وما الذي يحصل للذي لا يصبر؟

الذي لا يصبر يرتكب الوزر ويجزع ويتسخط على قدر الله، ويرتكب الآثام، وقد يُبتلى بالضيق الذي لا يجد له عافية، قد يُبتَلى بأمراض في جسمه،(وربما من شدة الحزن يُبتلى بالبَكَم، أو بالشلل، أو يُجن، أو غير ذلك من الأعراض التي تترتب على شدة الحزن)[٤]، لكن إذا سلَّمَ الأمر لله تَعَالَى تخلَّصَ من كثيرٍ من العناء؛ فإن الصبر فيه تبريدٌ لمرارة المصيبة وحرارتها، الصبر طمأنينة للقلب، وهو بإذن الله عَزَّوَجَلَّ خطوة طيبة في رفْعِ البلاء، حتى قال بعض الأطباء: الأوهام نصف الداء، والاطمئنان نصف الدواء، والصبر أول خطوات الشفاء.

الفصلة الأولى: (الأوهام نصف الداء) الذي عنده أوهام يمرض نفسيًّا، وقد يشعر أنه مريض حسيًّا، مثلًا: يظن أنه مصاب بالمس والسحر، أو مصاب بالعين، يمرض بسبب الأوهام، الأوهام لها تأثير على الصحة، حتى إن والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر لنا: أن امرأةً كانت تتوهم أنها حامل، فانتفخ بطنها-على أساس أنها حامل-.

---

(٤) ما بين القوسين من ش/أسئلة شباب ليبيا، لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فالأوهام قد تظهر في مظهر الحقيقة؛ ولهذا علينا أن نحذر من الأوهام، ونتوكل على الله، ونفوض أمرنا إلى الله، وندعو الله عَزَّوَجَلَّ.

الخصلة الثانية: (والاطمئنان نصف الدواء) إذا كان القلب مطمئنًا هذا نصف العلاج، بإذن الله يزول العناء والتعب، ولا سيما إذا ذكَر الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

فبطمأنينة القلب يزول كثيرٌ من العناء، أما إذا بقي قلقًا، وتارة يقول: عندي كذا، وأُخرى كذا فقد تتضاعف الحالة، وإذا اطمأنَّ فقد يرتفع المرض بإذن الله.

الخصلة الثالثة: (والصبر أول خطوات الشفاء) هذه منزلة الصبر، وما أكثر فضائل الصبر!

ولا تقوم الحياة والعبادة إلا بالصبر، وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «طريق الهجرتين» (٢٦٦): ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر.

فلو علم العبد الكنز الذى تحت هذه الأحرف الثلاثة أعنى اسم «الصبر» لما تخلف عنه.

فالصبر منزلته رفيعة، وإذا نظرنا وتأمَّلْنا فضائل الصبر هذا يعيننا على الصبر.

ومن الأسباب: الدعاء أن الله يرزقنا الصبر، فينبغي أن نكثر من الدعاء أن الله يثبتنا في السراء والضراء، النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى

طَاعَتِكَ» رواه مسلم (٢٦٥٤) عن عبدالله بن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ» رواه الإمام أحمد (٢٩/١٧٨) عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو في «الصحيح المسند» (١١٨٠)، ويقول ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران:٨].

والمصلي يدعو كل ما قرأ الفاتحة في صلاته: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾[الفاتحة]. دعاء بالثبات وبزيادة الثبات، الثبات على الصبر، الثبات على الخير، وعلى ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فالدعاء مهم في الثبات على الصبر.

وكم من امرأة تقول: لا صبرَ عندي، أو أجدني قليلة الصبر فكيف أعمل؟

ابذلي الأسباب التي تعينك على الصبر.

ومن ذلك: التسبيح، التسبيح شأنه عظيم في المعونة على الصبر، قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]. أرشده الله سُبحَانَهُ إلى التسبيح والصلاة والمداومة على العبادة حتى يتوفاه الله عَزَّوَجَلَّ، ذكر ذلك مقابل أذى الكفار له، أنه يضيق صدره، وأرشده الله سُبحَانَهُ إلى هذه الأشياء.

فإذا ضاق بك الحال فافزعي إلى ربك، واكثري من التسبيح، وكما قال تَعَالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [الطور:٤٨-٤٩].

وبفضل الله سُبحَانَهُ أنتِ تسبحين ثلاثًا وثلاثين بعد كل صلاة مكتوبة كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهذه نعمة عظيمة، وتسبحين ثلاثًا وثلاثين عند النوم كما في «الصحيحين» في شأن علي وفاطمة.

فإذا أكثرنا من قول: «سبحان الله» سلكنا طريقًا ناجحة في الثبات على الصبر، فما أعظم قول هذه الكلمة العظيمة! مع نظائرها التحميد والتكبير والتهليل، ففي هذا خير عظيم، وتثبيت لنا عند المتاعب، وتغير الأحوال وتقلُّبِها، وقول: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» ما أسهلها على اللسان وأيسرها! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن الأسباب التي تعين على الصبر: ذكر الله سُبحَانَهُ، فمثلًا: عند فجأة الشيء الذي لا يلائم النفس لا بد أن يكون الفزع ذكر الله، يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، كما قال ربنا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

وفي «صحيح مسلم»(٩١٨) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ

لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»، قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: «أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ».

أي: مَنْ يكون أفضل لها بعد أبي سلمة؟ وما هي إلا أيام وانتهت عدتها وأرسل إليها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الصحابي الجليل البدري حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يخطبها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فاعتذرت أم سلمة وقالت: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فقال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو اللهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو اللهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ»، والمرأة شديدة الغيرة تتعب، وأيضًا تتحطَّم، وتجلب على البيت الشر والخصام والمشاكل، وبهذه المناسبة فإنهم قد ذكروا أن المرأة الغيور لا ينبغي الزواج بها، والدليل ما رواه النسائي في «السنن الكبرى»(٥٣٢٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا تَتَزَوَّجُ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ؟ قَالَ: «إِنَّ فِيهِمْ لَغَيْرَةً شَدِيدَةً» وهو في «الصحيح المسند» (٩٩) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا فيه السبب أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لم يتزوج من نساء الأنصار؛ لأن الغيرة الشديدة تأتي بالمشاكل، الغيرة إذا تعدَّتِ الحَدَّ تُفسِدُ، وقد تأتي بسوء الظن، والأوهام التي لا أساس لها.

من أسباب الإعانة على الصبر: قراءة القرآن، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ ﴾

[الفرقان:٣٢]. وقال: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل:١٠٢]. من أعظم ما يثبِّت على الصبر: قراءة القرآن، القرآن نور وبصيرة قال تَعَالَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة:١٥]. وقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٤]. القرآن يبصِّرنا وينور لنا الطريق الصحيح السَّوِي عند المواقف، وعند نزول البلاء، ويبصرنا بالخير والشر، ويبصرنا بالمعروف والمنكر.

من الأسباب: الجليس الصالح؛ ولهذا يقول ربنا: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨]. الجليس يعينك على الصبر، حتى عند المواقف الشديدة يذكِّرك، ويقول لك: قل: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ويقول لك: اصبر، واحتسب، لا يفوتك الأجر، ولا تخسر. فتأتي المواعظ والنصائح، وهذه ينتفع بها المؤمن، كما قال ربنا: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى:١٠]. بخلاف جليس السوء فإنه يزيد الأمر شدة، ويزيد الطين بلَّةً، فنعوذ بالله من جلساء السوء. فمجالسة الأخيار نعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ينبهه إذا غفل، ويذكِّرُهُ إذا نسي، ويعلِّمه إذا جهل.

وبعضهم إذا نُصِحَ يقول: أنت ما تدرك مصيبتي، ما تعلم بالحال الذي أعانيه.

ومن الأسباب التي تعين على الصبر: تذكُّر النعم الأخرى، فإذا وقع ابتلاء تذكر نعم الله عليه، ونعم الله عَزَّوَجَلَّ لا تعد ولا تحصى.

عروة بن الزبير الصابر المحتسب كان في سفر فابتلي بآفة في رجله، فقال له الوليد أحد الأمراء: لا بد أن تقطع رجلك؛-لأنها إذا لم تُقطع يتسرى المرض كما هو شأن بعض الأمراض إذا لم يقطع العضو ينتشر المرض إلى سائر الجسم-، فوافق على هذا، فقُطعت رجله من وسط الساق، وما زاد على أن قال: حس-كلمة عند العرب تقال للتوجع والتألم-، ثم إذا برجل يأتي إليه ويقول له: ولدك رفسه الفرس فمات، فقال: الحمد لله، وعند رجوعه من السفر، قال: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الكهف:٦٢].

اللّهم إنه كان لي سبعة بنين فأخذت واحدًا وأبقيت ستة، وَكَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتَ طَرَفًا وَأَبْقَيْتَ ثَلاثَةً، لئن أخذت لقد أبقيتَ، ولئن ابتليت فقد عافيت(٥).

فهذا من الأسباب المعينة على الصبر: تذكر النعم الأخرى.

---

(٥) ذكر الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٣٠): عَنْ هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ: أَنَّ أَبَاهُ خَرَجَ إِلَى الوَلِيْدِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِوَادِي القُرَى، وَجَدَ فِي رِجْلِهِ شَيْئاً، فَظَهَرَتْ بِهِ قَرْحَةٌ، ثُمَّ تَرَقَّى بِهِ الوَجَعُ، وَقَدِمَ عَلَى الوَلِيْدِ وَهُوَ فِي مَحْمِلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، اقْطَعْهَا. قَالَ: دُوْنَكَ، فَدَعَا لَهُ الطَّبِيْبَ، وَقَالَ: اشْرَبِ المُرْقِدَ. فَلَمْ يَفْعَلْ، فَقَطَعَهَا مِنْ نِصْفِ السَّاقِ، فَمَا زَادَ أَنْ يَقُوْلَ: حَسِّ حَسِّ. فَقَالَ الوَلِيْدُ: مَا رَأَيْتُ شَيْخاً قَطُّ أَصْبَرَ مِنْ هَذَا. وَأُصِيْبَ عُرْوَةُ بِابْنِهِ مُحَمَّدٍ فِي ذَلِكَ السَّفَرِ، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ فِي اصْطَبْلٍ، فَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً. فَلَمَّا كَانَ بِوَادِي القُرَى، قَالَ: ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الكَهْفُ: ٦٣]، اللَّهُمَّ كَانَ لِي بَنُوْنَ سَبْعَةٌ، فَأَخَذْتَ وَاحِداً أَبْقَيْتَ لِي سِتَّةً، وَكَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتَ طَرَفًا وَأَبْقَيْتَ ثَلاَثَةً، وَلَئِنْ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتَ، وَلَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ.

ومن أسباب الصبر: أن نتأمل في حال الدنيا، وكثرة المصائب فيها والأحزان، فالدنيا مليئة بذلك، ولو تأمل ونظر لوجد كثيرًا من المصابين إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وأن فيهم مَنْ هو أشدُّ وأسوأ حالًا منه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «زاد المعاد»(٤/١٧٤): وَمِنْ عِلَاجِهِ أَنْ يُطْفِئَ نَارَ مُصِيبَتِهِ بِبَرْدِ التَّأَسِّي بِأَهْلِ الْمَصَائِبِ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ فِي كُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ، وَلْيَنْظُرْ يَمْنَةً فَهَلْ يَرَى إِلَّا مِحْنَةً؟ ثُمَّ لِيَعْطِفْ يَسْرَةً فَهَلْ يَرَى إِلَّا حَسْرَةً؟ وَأَنَّهُ لَوْ فَتَّشَ الْعَالَمَ لَمْ يَرَ فِيهِمْ إِلَّا مُبْتَلًى، إِمَّا بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصْفَ الدنيا، وقال:... الدُّنْيَا أَحْلَامُ نَوْمٍ، أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ، إِنْ أَضْحَكَتْ قَلِيلًا أَبْكَتْ كَثِيرًا، وَإِنْ سَرَّتْ يَوْمًا سَاءَتْ دَهْرًا وَإِنْ مَتَّعَتْ قَلِيلًا، مَنَعَتْ طَوِيلًا، وَمَا مَلَأَتْ دَارًا خِيرَةً إِلَّا مَلَأَتْهَا عَبْرَةً، وَلَا سَرَّتْهُ بِيَوْمِ سُرُورٍ إِلَّا خَبَّأَتْ لَهُ يَوْمَ شُرُورٍ.

هذا شأن الحياة، فالإنسان يعرف نعمة الله تَعَالَى عليه، قد يكون غيره مبتلى أشد منه، ونسأل الله العافية في الدنيا والآخرة. فإن السلامة من الفتن سعادة، روى أبو داود (٤٢٦٣) عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: ايْمُ اللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنِ، إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الْفِتَنُ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا» وهو في «الصحيح المسند» (١١٤٠) لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن الأسباب: القيام إلى الصلاة، فالصلاة ملجأ للمؤمن عند الكرُبَاتِ والمكروهات، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾[البقرة: ١٥٣]. وكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى.

وقصة جريج العابد الصالح فيها ما يفيد هذا المعنى، وفيها: أنه تَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا(٦).

قال الحافظ في «فتح الباري»(٣٤٣٦): فيه أَنَّ الْمَفْزَعَ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ إِلَى اللَّهِ يَكُونُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ فِي الصَّلَاةِ.

انتظار الفرج من الله سبحانه، وكلما قويت واشتدت الكربة فقد حان بإذن الله رفعُها، قال الشاعر:

وَلَرُبَّ نـــازِلَةٍ يَضيــقُ لَها الفَتى ❁❁❁ ذَرعًا وَعِندَ اللهِ مِنها المَخرَجُ
ضاقَت فَلَمّا استَحكَمَت حَلَقاتُها ❁❁❁ فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ

هذه بعض الأشياء التي تعين على الصبر، ونسأل الله أن يعيننا على أنفسنا.

---

(٦) قصة جريج رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند البخاري(٣٤٣٦)، ومسلم(٢٥٥٠) عن أبي هريرة.

وعند فجأة المصيبة أين تكون هذه المعلومات؟! أين يكون الثبات الذي في القلب؟!

قد تُنسى المعلوماتُ من أصلها، ويُنسى الدليل من أصله؛ لأن المصيبة لها دهشَةٌ وتأثير على الوعي، وأضرب لذلك موقفًا لما توفي النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر بالسُّنْحِ، وكان عمر يقول: لم يمت النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فجاء أبو بكر ودخل وكشف عن وجه النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-وهذا يفيد: أنه يستحب تغطية وجه الميت؛ سترًا له-فقبَّله، ثم قام وخطب في الناس فقال: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وقرأ قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤].

قال ابن عباس: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا(٧).

---

(٧) روى البخاري (٣٦٦٧-٣٦٦٨) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ،-قَالَ: إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي: بِالعَالِيَةِ-فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ اللَّهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ

الصحابة كأنهم لم يعلموا هذه الآية، وهم أهل الثبات واليقين، ومنهم حفاظ القرآن والسنة، ولكن فجأة المصيبة وهجومها لها دهشة في النفوس، وأيضًا الصحابة يحبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد من أنفسهم وأولادهم وأموالهم، فليس هناك مصيبة أشد عليهم من موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى قام أبو بكرٍ وثبَّتهم.

قال أبوعبدالله القرطبي في «تفسيره» (٤/ ٢٢٢): هَذَا أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى شَجَاعَةِ الصِّدِّيقِ وجرأته؛ فَإِنَّ الشَّجَاعَةَ وَالْجُرْأَةَ حَدُّهُمَا ثُبُوتُ الْقَلْبِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ، وَلَا مُصِيبَةَ أَعْظَمَ مِنْ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَظَهَرَتْ عِنْدَهُ شُجَاعَتُهُ وَعِلْمُهُ. قَالَ النَّاسُ: لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْهُمْ عُمَرُ، وَاضْطَرَبَ الْأَمْرُ فَكَشَفَهُ الصِّدِّيقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ حِينَ قُدُومِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ. اهـ المراد.

ومن مواقف الصحابة العجيبة في الثبات:

قصة عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان في بناء المسجد النبوي يحمل لبنتين(٨)، وكان الصحابة يحملون لبنة لبنة، فرآه النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فجعل ينفض التراب عنه، ويقول: «وَيْحَ عَمَّارٍ،

أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ. الحديث.

(٨) قال الحافظ في «فتح الباري»: فِيهِ جَوَازُ ارْتِكَابِ الْمُشَقَّةِ فِي عَمَلِ الْبِرِّ، وَتَوْقِيرِ الرَّئِيسِ وَالْقِيَامِ عَنْهُ بِمَا يَتَعَاطَاهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَفَضْلُ بُنْيَانِ الْمَسَاجِدِ.

تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ»، فيَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ(٩).

ثبات من الله وصبر عند توقع حصول المكروه، ثبات من الله تَعَالَى، لم يصرخ وقد أخبره النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سيموت مقتولًا مظلومًا، هكذا الثبات والصبر.

وعثمان بن عفان له موقف يشبه هذا، يقول أبو موسى الأشعري كما في «الصحيحين»(١٠) قال: فَقُلْتُ: لَأَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليَوْمَ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَ البَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: أَبُو بَكْرٍ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ؟ فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ». فَأَقْبَلْتُ حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ فِي القُفِّ (١١)، وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي البِئْرِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ. الحديث وفيه: فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «ائْذَنْ لَهُ

---

(٩)روى البخاري (٤٤٧) عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ وَلِابْنِهِ عَلِيٍّ: انْطَلِقَا إِلَى أَبِي سَعِيدٍ فَاسْمَعَا مِنْ حَدِيثِهِ، فَانْطَلَقْنَا فَإِذَا هُوَ فِي حَائِطٍ يُصْلِحُهُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَاحْتَبَى، ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى أَتَى ذِكْرُ بِنَاءِ المَسْجِدِ، فَقَالَ: كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ، فَرَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ» قَالَ: يَقُولُ عَمَّارٌ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ.

(١٠) البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (٢٤٠٣).

(١١) الذي يكون حول البئر. قال ابن الأثير في «النهاية»(٤/٩١): قُفُّ الْبِئْرِ: هُوَ الدَّكَّة الَّتِي تُجْعَل حوْلَها. وَأَصْلُ القُفِّ: مَا غَلُظ مِنَ الْأَرْضِ وارْتَفع، أَوْ هُوَ مِنَ القَفِّ: الْيَابِسُ، لأَنَّ مَا ارْتَفع حَوْلَ الْبِئْرِ يَكُونُ يَابِسًا فِي الْغَالِبِ.

وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ» فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ، وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقُفَّ قَدْ مُلِئَ فَجَلَسَ وِجَاهَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ.

«وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» بِشارة عظيمة لا شيء أعظم من الفوز بها.

وفي رواية للبخاري (٣٦٩٣): «افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ»، فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ»، وفي رواية مسلم (٢٤٠٣): «فَقَالَ: اللهُمَّ صَبْرًا، أَوِ اللهُ الْمُسْتَعَانُ».

هذا من الثبات والصبر عند المكروه وعند البلاء، وعثمان بن عفان تعمَّر إلى الثمانين عامًا، وابتلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ» هذا من معجزات النّبيّ ﷺ أنه سيبتلَى، وقد ابتُلِيَ بالخوارج، وقد قال النّبيّ ﷺ: «يَا عُثْمَانُ، إِنَّ اللهَ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ، فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي» رواه الإمام أحمد (٤١/١١٣) عن عائشة، وهو في «الصحيح المسند» (١٥٨٩) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

القميص: كناية عن الخلافة. «فَلَا تَخْلَعْهُ» أي: اثبُت عليه، فقامت فتنة الخوارج وأحاطوا بدار عثمان، ابتلاء شديد، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ» رواه ابن ماجه(٤٠٢٣)، وهو في «الصحيح المسند» (٣٧١) لوالدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومنعوا وصول الطعام والشراب إليه، فكان ربما أشرف عليهم ويذكِّر ببعض فضائله؛ وقد أحاطوا به وقربوا منه قليلًا حتى قتلوه مظلومًا شهيدًا، وقد أخبر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بذلك أنه سيموت شهيدًا، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أُحُدٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ، قَالَ: «اثْبُتْ أُحُدُ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدَانِ» رواه البخاري (٣٦٨٦)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا، نسأل الله أن يثبتنا.

وأم المؤمنين في حادثة الإفك قالت: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٨][(١٢)].

انظرن أخواتي في الله إلى هذه المواقف العظيمة، مواقفُ للصحابة في الصبر والثبات عند البلاء والمصائب.

ونبشِّر أنفسنا وأخواتنا أنه بتوفيق الله تَعَالَى إذا تمسكنا بديننا، واستقمنا على دين الله أن الله لن يضيعنا، ولن يخذلنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا، النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ» رواه الترمذي(٢٥١٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وهو في «الصحيح المسند» (٦٨٥)

(١٢) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

لوالدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

فهذه بشارة بالخير في الثبات على الصبر، إذا التزمنا بديننا واستقمنا، فإن الله يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في «إعلام الموقعين»(١/١٣٦): فَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ قِسْمَانِ: مُوَفَّقٌ بِالتَّثْبِيتِ، وَمَخْذُولٌ بِتَرْكِ التَّثْبِيتِ، وَمَادَّةُ التَّثْبِيتِ أَصْلُهُ وَمَنْشَؤُهُ مِنْ الْقَوْلِ الثَّابِتِ وَفِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ الْعَبْدُ، فَبِهِمَا يُثَبِّتُ اللَّهُ عَبْدَهُ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَثْبَتَ قَوْلًا وَأَحْسَنَ فِعْلًا كَانَ أَعْظَمَ تَثْبِيتًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [النساء: ٦٦]، فَأَثْبَتُ النَّاسِ قَلْبًا أَثْبَتُهُمْ قَوْلًا.

أسأل الله أن يجعلني وإياكن من الصابرين، وأن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والحمد لله رب العالمين.

تم نشر هذه المحاضرة ولله الحمد والمنة.

ليلة الأربعاء الموافق ٥/ من شهر ربيع الآخرة/ لعام ١٤٤٤ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.